

التربية و التعبير الاجتماعي في البلاد العربية و الاسلامية

اعداد : عباسي مدني

أستاذ بمعهد علم النفس و علوم التربية

- جامعة الجزائر -

تعد مشكلة التربية من أعقد المشكلات التي تواجه الدولة الحديثة، و يعتبر موضوع التربية من أهم المواضيع التي لا تشغل بال المربين فحسب (1) بل تشغل أيضا بالمفكرين و المصلحين الاجتماعيين و غيرهم و يعود هذا الاهتمام الى شدة ارتباط التربية بالحضارة و الثقافة و تأثيرها و تأثيرها في السياسة و الاقتصاد و جميع الأوضاع الاجتماعية .

هذا و أن مشكلات التربية لا يخلو منها مجتمع مهما بلغت درجة بساطته أو تعقيده على أنها لا تواجه الأم بنفس الدرجة و لا بنفس الوضع على وجه التحديد، لقد واجهت مشكلة التربية من حيث هي قضية تربوية بحتة غايتها تكوين الفرد تكوينا جيدا جسيما و نفسيا و عقليا لتحقيق شخصية الفرد كمال نضجها و نهاية نموها و سلامتها فتحقق بذلك عند تعميمها على جميع الأفراد سلامة المجتمع ذي الشخصية المثلى و الخبرة الراقية و الرسالة الهادية عبر التاريخ . لقد ظهرت هذه النماذج التربوية مع ظهور الأنبياء و المرسلين، فالتأمل في تاريخ الرسائل السماوية التي كشف عليها القمص القرآني النقاب في وضوح (2) و جلاء يدرك أهمية هذه النماذج التربوية و عمق مفهوم الانسان و رقي القيم التي حددت على أساسها أهداف التربية و جميع أغراضها الفردية و الاجتماعية و هو ما يلاحظ أيضا في عهود الخلفاء الراشدين و التابعين الى العهد الأموي و العباسي بالنسبة الى الأمة الاسلامية . أما في الأمم الأخرى فقد عرفت التربية ازدهارا و تطورا في عهد كونفوشيوس و أتباعه و سقراط و تلامذته و في عهد الإصلاح الديني الكنسي بغضل محاولات

1 (يقول بهذا الرأي الذي يقضى بتشعب القضايا التربوية الى أن تتعامل في أعماق الحياة الاجتماعية و كل أبعاد الحضارة علماء و كثيرون منهم على وجه الخصوص ابن خلدون في كتابه المقدمة لكتاب العبر و مصطفى عبد الرزاق في مقدمة له لكتاب التربية في الاسلام لأحمد فؤاد الأهواني و السيد أبو الحسن علي حسن الندوي في كتاب "نحو التربية الإسلامية الحرة" .

2 (القرآن الكريم .

جون كالفن 1509 - 1564 و مارتن لوتر 1483 - 1546، و أتباعهما (1) و في عهد الثورة الفكرية على فلسفة الكنيسة التي اجتاحت العالم الغربي في القرنين السابع عشر و الثامن عشر الميلاديين (2)، و كثيرا ما تطرح مشكلة التربية على هذا المنوال عندما تكون الأمة في حالة التأهب و التحفز لأداء الرسالة أو إقامة حضارة و انبثاق نهضة و أبحاث صعوة .

أما مشكلة التربية ابان ظهور الثورة الصناعية في بريطانيا و أوروبا فقد كانت اقتصادية بالدرجة الأولى و ان انعكست على الأوضاع الاجتماعية و الثقافية و السيلسية (3)، و عندما أندلعت الثورة الفرنسية رفعت شعار الأخوة و المساواة و الديمقراطية و ما أن ظهرت النزعة الامبريالية الاستعمارية في العالم الحديث حتى نشأ التباين الطبقي في المجتمع الليبرالي الرأسمالي و صارت مشكلة التربية سياسية (4) تخضع لأعتبارات من نوع جديد كالمراع الطبقي و الطائفي و الايديولوجي.

أما بالنسبة الى الشعوب المستعمرة فقد أختلفت المشكلة التربوية باختلاف تطور المفاهيم الاستعمارية، فبعد ما كان الاستعمار مجرد غزو عسكري غايته استغلال ثروات

1 (محمد أمجداد المولى...، قصص القرآن ط 10 المكتبة التجارية بمصر 1389هـ 1969م، محمد بيومي صهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، لجنة البحوث و التأليف و الترجمة و النشر، المكتبة التاريخية، 1400هـ . 1980م .
2 (بول مورو، المرجع في تاريخ التربية، وزارة المعارف، دار الترجمة، مكتبة النهضة المصرية 1953، ج 2، ص 61 - 64 .

3 (يرى فرنسيس بيكون أن أسباب النزعة الالحادية هي الانقاسامات في الدين التي كانت عديدة . أنظر : قصة الفلسفة ويليديورانت، ترجمة أحمد النسياني، منشورات المكتبة الأهلية بيروت، ص 225. ثم أنظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دارالمعارف ط 4 1966 ، ص / 8. ثم أنظر ويليديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف و النشر القاهرة 1959، ج 21، ص / 29. في آرتر كاستلر، القسم الذي هو تعريب فؤاد حمودة منشورات المكتب الاسلامي، دمشق، ط 1، 1380هـ ، 1960م .

- C. Wright Mills, The Power Elite, Oxford university Press, P.269.
- George Pickering, The Challenge to Education, Apélican Book, Penguin Book P.58-67.
- R, Garaudy, L'alternative, Edition Robert Laffont, Paris VI, P.11-37.
- Radovan Richta, La Civilisation au carfour, Edition du Seuil, Paris P.11-23.
- V. Giscard d'Estaing, Democratie Française, Fayard, P. 49-53.
- François, Durricaud, Esquisse d'une théorie de l'autorité librairie, Plon, Paris, P.9-41.
- B.R Cosin, Education structure and society, Penguin weth the open University Press, P.80.

البلدان و نهب الشعوب تحول الى غزو فكري و قهر حضاري (1). فحولت السياسة الاستعمارية كسياسة "الجزائر فرنسية" التربية من عامل بناء الى عامل هدم حضاري و من وسيلة اصلاح الى عامل افساد و من أداة تحرر بمعناه الكامل الى أداة تبعية ثقافية.

ان التربية الاستعمارية الانجليزية التي استعملت في آسيا (2) و افريقيا لمن أخطر النماذج التربوية الاستعمارية التي كان لها أسوأ الآثار على الأمم المستعمرة بصفة عامة و الأمة الاسلامية بصفة خاصة و كذلك التربية الاستعمارية الفرنسية التي فرضتها فرنسا على شعوب الشمال الافريقي و غيرها كالشعوب الفرانكوفونية الافريقية و لقد كانت هذه التربية أخطر سياسة تربوية استعمارية تعرضت لها الشعوب (3).

و الدليل على ذلك أنها هي التي أعطت للاستعمار المفهوم الثقافي و البعد الحضاري الذين لا يزولان بزوال سلطته السياسية و جلاء قوته العسكرية بالإضافة الى ما حققته في هذه الأقطار و غيرها من تبعية مجحفة و تقليد أعمى و نزعة استهلاكية تواكفية حيال الحضارة، و هو الأمر الذي جعل المشكلة التربوية في المجتمعات العربية والاسلامية المعاصرة على درجة من العمق و التعقيد، لم تطرح كمجرد مشكلة اقتصادية يمكن أن ينطبق عليها التفسير المادي الماركسي كما يدعي البعض (4) و لا هي سياسية حتى بالمعنى الواسع لهذه المشكلة كما يراها هيقل (5) بل هي أعمق من ذلك و أبعد من أن تحصر في مجال واحد مهما كانت أهمية ذلك المجال في الحياة الاجتماعية، و أعمق بكثير مما تبدو،

1 (مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ترجمة محمد عبد العظيم علي، مكتبة عمارة مالك بن نبي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مكتبة دار العروبة 1960، ص 11-81 و 129-مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كمال المسقاوي، دار الفكر ط 3، 1969، ص 126. فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، بدون تاريخ ص 23.

2 (غاندي، حضارتهم و خلاصنا، ترجمة نجدة هاجر، منشورات المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط 1، 1959، ص 131. الباريفان، الثقافة الانسانية و فلسفة التربية، اليونكو، دار النشر للجامعيين، تعريب أنطوان فوري، ص 69.

جواهر لال نصرو، آراء في قضايا الساعة، نقله الى العربية مروان الجابري، منشورات المكتب التجاري للطباعة و التوزيع و النشر، ط 1، 1959، ص 16-23.

- Norman Miller and Rodrik Aya, National Liberation Revolution in the third World, the Free Press, P.14-48.

- Sir Hamilton A.R.G. BB, The Middle East In transition Edited by, walter, Z Laqueur, Routledye et Regan Paul, London, P.4-11.

3 (قول الدكتور بوديشون: ((لأبد لفرنسا أن تحرق فرنسيها الاستعمارية المقاييس الأخلاقية و قيمها ولكن الذي يهنا قبل كل شيء هو تأسيس مستعمرة تملكها بصفة نهائية و تنشر على الشواطئ البربرية المدنية الأوروبية)). أنظر : ليل الاستعمار، فرحات عباس، ص 73.

4 (أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية 1975، ص 210-212.

5 (مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1962، ص 92.

أنها قضية حضارية برمتها (1) لأمة ذات رسالة (2) جاءت لانتشال العالم من ظلم الكفر وطفغان الجبابة وخطر الخراب والدمار الناشئ عنهما في إطار حضارة نووية تتحضر أممها للغزو، و تتحضر للقهر والغلبة، حاملة في طياتها بذور الدمار والفناء والشقاء في الدارين، إذن فالمشكلة التربوية كما هي مطروحة الآن على الشعوب العربية والإسلامية هي مشكلة إعداد إنسان الحضارة (3) الإسلامية الذي يكون في مستوى العمل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ذلكم الإنسان الذي يجيد توظيف تراثه الثقافي، و ثرواته الطبيعية التي تزرع بها بلاده توظيفا حضاريا وتقنيا انطلاقا من إعادة الاعتبار للإنسان : دينه، وعقله، وضميره، و إرادته، و حريته، في اعتدال و توازن بين مختلف حاجاته المادية والروحية، كما جاء ذلك في العقيدة الإسلامية.

فالأمة الإسلامية كأي أمة متحضرة لا يمكن لها أن تعيش خارج نطاق حضارتها، تلكم التي أنشأت بفضل جهود أجيالنا المتعاقبة وبفضل جهادها المستمر عبر تاريخها الطويل، فالحياة خارج الحضارة عدم و موتا و خرابا، و التربية كما هي في اصطلاح المربين لا يمكن أبدا فصلها عن الحضارة فمنها تستمد مبرراتها ومادتها ومحتواها وأغراضها ووسائلها وجميع أدواتها وتقنياتها ونظمها ومؤسساتها، فحاجة التربية إلى الحضارة كحاجة الشجرة إلى التربة الطيبة كي تؤتي أكلها كل حين بأنزله ربه على أكمل الوجوه لا بد لها من البيئة الحضارية الشاملة والمناخ الثقافي المناسب. هذا وأن الوظيفة الأساسية التربوية هي وظيفة حضارية على مر العصور والأزمان في مختلف الظروف والأحوال (4)، أما عزل التربية عن الواقع الثقافي والاجتماعي الذي يعيشه المجتمع و جل اهتماماتها خارج الأحداث الكبرى التي تسيطر على العالم فلم يحدث إلا في أسوأ حالات الانحطاط كما كان الشأن عند المدرسين في القرون الوسطى (5).

إن التربية التي لا تراعى جميع حاجات الفرد والمجتمع وحقيقته التاريخية وآماله المستقبلية هي تربية فاقدة لأهم مبرراتها، فالوقائع التاريخية التي تستمد

1 (أبو الحسن علي الحسن الندوي، التربية الإسلامية الحرة، مؤسسة الرسالة، ط 4، 1403 هـ 1982م، ص 7 - 10.

2 (مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، ط 3، 1969، ص 111 - 138.

- Alan Swingrood, Marx and modern social theory, M, P. 58-87.

- M. Dommanget, Les Grands Socialistes et l'Education, Armand colin, P. 302-328.

4 (يقول السيد أبو الحسن علي الحسن الندوي : فمهمة التعليم في البلاد الإسلامية مهمة عسيرة ومعقدة ... أنه ليس بحر تعليم العلوم والفنون ولغات وطنية وأجنبية و أدوات أهلية وروسية، بل هو انشاء جيل جديد انشاء فكريا وخلقيا ممتازا و ذلك لا يتم بترجمة الكتب و جلب الأساتذة من الخارج و انشاء عدد كبير من الكليات والجامعات وارسال بعثة الطلبة إلى أوروبا وأمريكا انما تحتاج إلى شيء كبير من النبوغ والابتكار و شيء كثير من التأليف والانتاج ... ص 8.

5 (بول مونو، المرجع في تاريخ التربية، ترجمة صالح عبدالعزيز، مكتبة النهضة المصرية 1958، ج 1، ص 218.

منها هويتها كماض وحاضر ومستقبل والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كما تواجهها الأمة في حياتها الثقافية والحضارية تربية فاشلة لا تستطيع أن تمكن الفرد ولا المجتمع من التخلص من معضلاته ولا تضمن له تحقيق آماله في المستقبل. فالواقائع التاريخية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلاد الإسلامية تواجه شعوبها كبلاد مغزوة وأمة مظلومة وحضارة مهددة قل فيها الجهد وضعف الجد وأنطقت فيها جذوة العبقرية فغشى التقليد وقل الإبداع... ومن ثمة فإن رسالة التربية في هذه المجتمعات تبدأ من مواجهة هذه الظروف وعلاج القضايا بحزم وبقطة وحكمة.

معنى هذا أن التربية عندنا مدعوة إلى أعداد أجيال خالية من عقدة التخلّف والولوع بالغالب على حد تعبير ابن خلدون، قادرة على وضع حد للتبعية بكل معانيها الاقتصادية والثقافية... لكن هذا لا يتأتى إلا بإعادة النظر في الأوضاع التربوية السائدة من أجل إصلاح تربوي جذري وشامل يحقق النوعية التربوية فيشجع المواهب على النبوغ والتفوق والامتياز في مختلف مجالات العلوم والمعارف والفنون والتقنيات وجميع أصناف الخبرات... أو بتعبير آخر فإنه لا بد من البحث الجاد عن نقطة بداية صحيحة لنهضة أصيلة يكون لها شأنها في المستقبل، ولعل من أهم شروط النهضة الحقبة الإصلاح التربوي الذي يقوم على أساس إعادة الاعتبار إلى الإنسان جسمه وعقله وروحه، هذا أن سلمنا بأن مشكلة الحضارة يشكل الإنسان (1) فيها حجر الزاوية (2).

أما ما يدعى اليوم بالنهضة في البلاد العربية والتي تغشى الحياة الثقافية فهي نهضة مزيفة في نظرنا لا تستطيع أن تذهب بعيدا بدليل توقفها في دائرة التخلّف والقبوع في ظل حضارة الشرق أو الغرب أو هما معا تستمد منهما ما يسد حاجتها اليومية من المواد الاستهلاكية وهذا لا يزيد بها إلا ارتباطا بالدول العظمى وخضوعا لسلطانها القاهر واستسلاما لنظامها الدولي الامبريالي (3)، الجائر. هذا النظام الذي وضع لتزداد الأمم الغنية غنى وقوة بينما تزيد الأمم الفقيرة فقرا وضعفا لأن النهضة التي لا تقوم على الأصالة ولا تشد النبوغ للتفوق على المستوى الحضاري الشامل كما هو الشأن في أغلب الأنظار العربية حاليا لنهضة شكلية تقضي على كل نعمة استقلالية إبداعية تحريرية، فالنهضة القائمة على تربية غربية أو شرقية في روحها وأهدافها وغاياتها ونظمها لا يمكن أن تكون إلا نهضة سطحية الفكرة عقيمة المسعى عديمة الجدوى...

يكتب أحد الأدباء المهتمين بالتربية في مصر مقدمة لكتاب له قوله ((وفي هذا العصر الذي ظهرت فيه تلك النهضة المصرية الفتية، أرجو أن أقدم للمربين والمثقفين من قراء العربية في الشرق عامة وفي مصر خاصة هذا الكتاب في "الاتجاهات الحديثة" ...

- 1) اسوالد شينغلر، تدهور الحضار الغربية، ترجمة أحمد التيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج 3، ص 240.
- 2) (أرنولد توينبي، مختصر دراسات للتاريخ، ترجمة محمد فؤاد شيل، جامعة الدول العربية ط 1، 1960، ج 1، ص 86 - 93.
- 3) (بن جامين ج - كوهين، قضية الامبريالية، ترجمة نورالدين الزراري، مؤسسة سجيل العرب، 1980، ص 24 - 85.

و هو ثمرة كثير من التجارب و خلاصة دراسة وافية للتربية النظرية و التجريبية — (و العلمية) (1) و يذهب الكاتب الى القول بأن التربية الحديثة على اختلاف مشاربها روح واحدة فيقول : ((...فبعد أن كانت تلك الآراء - و بمعنى الآراء التربوية الحديثة - نظرية أصبحت ممكنة التطبيق بمختلف الوسائل و يرى أنها و معها اختلفت الطـرق الحديثة، و تعددت أسماؤها في أوروبا و أمريكا فانها متحدة في روحها)) (2). و لو تعمق الكاتب قليلا في نظريات التربية لوجدناها تختلف في أعماقها باختلاف الاتجاهات الفلسفية أو الدينية و الأيديولوجية السياسية و التربوية بالضرورة، و لعل هذا ما جعل الكثير من المهتمين بالتربية يهتمون فقط بنقل النظريات و الاكتفاء بعرضها كخبرة ممتازة و التشجيع على استيرادها و اقتنائها دون معرفة ما لا يليق فيها للمنظومات التربوية المستعيرة. و هذا باعتراف بعضهم نذكر منهم على سبيل المثال جنا غالب في مقدمة كتابه حيث يقول : ((و مما يؤسف له أن علم التربية عندنا لا يزال متحفزا... فبالبحوث و الدراسات التربوية لم تبدأ بعد بصورة جدية، و لا يزال الأدب التربوي في اللغة العربية ضئيلا، و ما لدينا منه معظمه مترجم (3)، أو مقتبس من مصادر غربية شتى (4)، و الواقع أن ما لدينا من ركام الكتب المترجمة بالعربية لا يكاد يزيدن عن عرض قد يختلف في العمق و الدقة و الأمانة لمختلف النظريات التربوية خال من التحليل و النقد و إعادة النظر و هو ما حمل الكثير من قراء هذه الكتب و الطلاب على الاعتقاد بهذه النظرية بأنها حقائق ثابتة و مبادئ كسلمة لا تقبل النقاش و لا تحتاج الى إعادة النظر و الحال أنها عند أصحابها ان كانوا نزهاء أحوج ما تكون الى الجهود الفاحصة و الدراسات الناقدة. فاذا كانت هذه النظريات في رأي أصحابها تحتاج الى إعادة النظر فهي بالنسبة الى غيرهم ممن تختلف دياناتهم و عقائدهم و مذاهبهم أحوج. بل يذهب بعض الدارسين للنظريات الحديثة نذكر منهم جون ديوي و جيمس روس الى أن التربية و الفلسفة لشدة ارتباطهما شيء واحد (5) و من ثمة فانه اذا اختلفت المذاهب الفلسفية اختلفت بالضرورة المفاهيم و المذاهب التربوية، اننا لا ننكر قيمة المحاولات التي قام بها الكتاب العرب من نقل الخبرات التربوية الحديثة و مدى مساهمة هذا الانتاج في تعميق النظر في المسائل التربوية في البلاد الاسلامية، لكن توقفها عند هذا الحد من نقل الخبرات دون تمحيص و دراسة و اظهار عواقب انتحالها على علاقتها كما هو جار في أغلب أنحاء البلاد أمر بات يهدد خطره بالامعان في التقليد و ينذر بالتزام التبعية للأمم المنتجة لهذه النظريات. مع العلم أن هذه النظريات لم تأت صدفة بل هي وليدة ظروف تاريخية و ثقافية معينة و حضارة متميزة و ظروف اجتماعية خاصة ليست لها أي صلة بالبيئة الثقافية العربية و الاسلامية. الا ما كان مشاعا بين الأمم و الحضارات من علوم و تقنيات و معارف و خبرات يمكن اعتبارها من المحتوى التربوي كنتاج انساني مشترك.

- 1 (محمد عطية الابراشي، الاتجاهات الحديثة في التربية، دار لأحياء الكتب الغربية ط 6، ص 3.
- 2 (نفس المصدر، ص 6.
- 3 (و يلاحظ أن هذا الأخير في ادعائه قد أغفل التراث التربوي الاسلامي الزاخر بكنوز الخبرة التربوية. و حصر همه فقط في التربية الحديثة.
- 4 (حنا غالب، مواد و طرائق التعليم، بيروت، لبنان، 1966، ص 2.
- 5 (جيمس روس، الأسس العامة لنظريات التربية، ترجمة صالح عبد العزيز، مكتبة النهضة المصرية، ص 5.

هذا من جهة النظرية التربوية أما النظم التربوية في البلاد الاسلامية و هي أبرز ميدان تتجلى فيه شخصية الأمة و أصالتها و عبقريتها و جميع حظوظها الحضارية فقد تعرضت هي الأخرى للتخريب تحت ستار الإصلاح و التمدين أثر الغزو الاستعماري الذي لم تنج منه ناحية من البلاد الاسلامية (1). مع العلم أن أي مس لهذه النظم تنجم عنه عواقب وخيمة على كل المستويات الثقافية و الحضارية . ان السياسة الاستعمارية استنادا على الوثائق الرسمية و الأحداث الأليمة أيام الاحتلال تندرج تحت المخطط الاستعماري الذي تعرضت له البلاد الاسلامية لم تعرف الانسانية أخطر منه . فكان مديرو هذه الخطة الاستعمارية للعالم الاسلامي يعتقدون أنه من المستحيل الاستيلاء على العالم الاسلامي و اخضاعه لنفوذهم مادام المسلمون أقوياء في عقيدتهم عاملين بدينهم متشبعين بقيمهم متحليين بشمائل أخلاقهم ... لذا بات في حسابهم أمر القضاء على الأمة الاسلامية الذي صار لا يتأتى الا بالقضاء على النظم التربوية و تعويضها بنموذج يتعاشى مع أغراض السياسة الاستعمارية (2) و العمل على تكوين جيل مخضرم لا هو متشبع بروح دينه و مقتنع بعقيدته و أخلاقه و لا هو متمكن من الروح الغربية أو الشرقية الحضارية . فمن الذي يستطيع أن ينكر آثار هذه المخططات الماكدة في مختلف أنحاء البلاد العربية و الاسلامية ، لذا ونحن اذ نحاول أن نعالج في هذه الدراسة مشكلات التربية في البلاد العربية و الاسلامية نرى لزما علينا أن نحصر المشكلة التربوية التي تعاني منها البلاد في العصر الحديث في البورتين الرئيسيتين التاليتين :

أ - الإصلاحات التي تعرضت لها النظم التربوية في البلاد الاسلامية و انعكاسها الثقافية و الحضارية .

ب - النظرية التربوية الحديثة من حيث هي خبرة ذات خلفيات ثقافية و حضارية معينة ان كان لها فضل النهوض بالعالم الغربي عبر جهود ما بعد الإصلاح الديني ، فهي اليوم على ما وصلت اليه من تطور تشكو ضعف خلفيتها الفلسفية و عجزها عن تحقيق السعادة للانسان الحديث و تحقيق التوازن الروحي و المادي (3) .

ان النظرية التربوية الحديثة حتى في أمعن حالاتها المثالية تعاني من مأزق العادية (4) الحرج و هي مع ذلك تغزو العالم الاسلامي و تجد بابه مفتوحا على مصراعيه و رجال الفكر متفرجون و منهم من يعتقد أنها بلغت الكمال و النهاية في التمام .

(1) ساطع الحصري، التربية و الاجتماع، دار العلم للملايين، بيروت، 1962، ص 109.

(2) أ.ل. شاتليه، الغارة على العالم الاسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب، السدار السعودية للنشر، ط 2، جدة 1387 هـ، ص 118.

(3) السيد ريتشارد لونغسون، التربية لعالم حائر، ترجمة وديع الضبع، مكتبة النهضة المصرية، 1940، ص

(4) نفس المصدر، ص 2 - 29.

و انطلاقاً من هذه الاعتبارات أتخذ الإصلاح في نظر هؤلاء العلماء المصلحين أدق معانيه و أبعد مرامييه من حيث هو عملية منهجية للتغيير الشامل القائم على أسس علمية سليمة أبعد ما تكون عن النزوات العاطفية و الأغراض الشخصية و المحاولات الارتجالية، و هو ما جعل منهجهم الاصلاحي اذا ما قورن بالإصلاح عند المصلحين الغربيين أكثر عمقاً و شمولية و دقة و سلامة و صحة و أصالة... و هذا ما جعل الصحة مدينة لهم الى اليوم، فلا تستطيع أن تخرج عن هذا المنهج اذا أريد لها الاستمرار الى أن تحقق أبعد غاياتها و أسمى مراميها. و اذا قيل لماذا حققت الإصلاحات الغربية نهضتها و غاية نمو حضارتها و ازدهارها في حين أن الإصلاحات التي دعا اليها علماء الاسلام لم تحقق شيئاً من ذلك، فإن العملية الإصلاحية ذات الأبعاد الشاسعة تقتضي شروطاً منها بالضرورة مراعاة عامل الزمن بالإضافة الى أن الضغوط التي تواجهها حركات الإصلاح الاسلامية لم تواجهها الحركات الإصلاحية الغربية و خاصة الغزو (2) الفكري و ما يشكله من عراقيل أمام الإصلاح بصفة عامة و الإصلاح التربوي بصفة خاصة في البلاد، و لئن حاول زعماء الغزو الفكري الحيلولة دون تبني الشعوب الاسلامية الدعوة الإصلاحية بما يبيثونه من شكوك في صحة (3) الاسلام و سلامة نهجه و قدرته على حل مشكلة الانسان في هذا العصر، فإن الشعوب الاسلامية قاطبة (4) قد أستجابت لنداء علمائها و دعوتهم الإصلاحية و هو ما شجع ظهور مدارس و معاهد تمثل النموذج الاصلاحي الذي اختاروه، و كانت الشعوب الاسلامية لا تتراخى و لا تتهاون في أمر تدعيمها و تمويلها و لم تبخل بالعزیز لتعزیزها حتى صارت معلماً من معالم الصحة. فكل ذلك على الرغم من محاولات السلطات الاستعمارية لمنعها و قهر علمائها و دعائها، فقد كانت الحركة الإصلاحية الاسلامية في أغلب أنحاء البلاد قد أنعشت ضمير الأمة و نشرت الوعي في أرجائها فقل الصبر على الضيم و شاق الناس الى المعالي وجدوا في طلب الحرية بكل غالي، و شملت تلك الروح أغلب الأقطار الاسلامية و كان من نتائج ذلك قيام ثورات تحررية تصدت للاستعمار بشجاعة نادرة، و بسخاء في التضحية و الغداء فأحيث عهود الأبطال من السلف الصالح، أولئك الذين دوخوا العالم بتفانيهم من أجل إعلاء كلمة الله، و رفع راية الاسلام خفاقة، و هو ما رفع رأس الأمة بين الأمم، و اتخذوا الجهاد حلاً حاسماً لمواجهة الاستعمار حتى طردوه، و حققوا تحرير البلاد من رقبته.

و اذا كان الناس في معظم أنحاء البلاد الاسلامية على هذا المستوى من السخاء و البذل في النفس و النفيس من أجل تحقيق حريتهم فذلك لأنهم كانوا يعتقدون أنهم بحصولهم على الحرية الحققة و الاستقلال التام يتم حصولهم على كل المرامي و الأهداف، و كانت أمنية الأماني عند جلهم أن يحققوا الإصلاحات التي نادى بها العلماء المسلمون المصلحون، ففتحوا للأمة صلاحها و تنال عندئذ الفلاح، و كأنهم كانوا مقتنعين بأنه لا فلاح بدون صلاح و لا صلاح إلا بالصلاح. قد يعترض معترض فيقول : انك تجاهلت تلك الإصلاحات الهامة و الجهود الجبارة التي بذلت في هذا الصدد في أغلب الأقطار العربية و الاسلامية

- 1 (عمار طالبي، ابن باديس، آثاره و حياته، دار مكتبة الشركة الجزائرية، دار اليقظة العربية ط 1، 1388 هـ 1968 م. ج 1، ص 11.
- 2 (مالك بن نبي، الصراع الفكري، مكتبة دار العروبة، ص 11 - 13.
- 3 (محمد الهبي، الفكر الاسلامي الحديث، مكتبة وهبة، ص 7.
- 4 (القسيس نالسون : ((ان حركة هذه الجامعة الاسلامية - قد خضعت في أبعد خلع السلطان عبد الحميد ولكن لا تزال في الأهالي روح تضامن مع ملازمة للاسلام. الفارة على العالم الاسلامي، مصر، ص 163.

فما بال الإصلاحات التربوية التي قام بها رجال السياسة أمثال مصطفى كمال أتاتورك و الخديوي اسماعيل و من سار على منوالهم من دعاة الحداثة .

مع العلم أن جل الإصلاحات قد تحقق بالفعل، و صارت المدارس الابتدائية (1) و التكمليات و المعاهد الثانوية و الجامعية خير دليل على نجاح هذه الإصلاحات التربوية الحديثة . إذ لولاها لبقى تلاميذنا في الكتاتيب القرآنية و الزوايا و الجوامع، كالأزهر، و الزيتونة، و القراوين، و الجامع الأموي في دمشق و غيرها من مدائن العالم الإسلامي كقم، و اسطنبول و لاهور... من مؤسسات أصحاب العمام . و الحقيقة أن اعتبار ما قام به مصطفى كمال في تركيا و الخديوي اسماعيل في مصر و ما تم من تغيير للمنظمات التربوية في مختلف الأقطار العربية و الإسلامية إصلاحا تربويا سليما لهو قلب للحقائق، و تجن على الحق و الحقيقة .

فستان بين الإصلاح التربوي القائم على الأسس المنهجية السليمة الصحيحة تشرف عليه قلة من علماء الأمة الذين هم على بصيرة من الأمر أحرار في تفكيرهم، أو الى أصالة و حكمة و نفاذ رأي و استقلالية في العزيمة و بين تلك الطفلات الارتجالية المفروضة بطريقة ما . ان ما قام به مصطفى كمال و الخديوي اسماعيل في تلك الظروف الغامضة و ما تلاها من محاولات غمرت البلاد الإسلامية قاطبة جنايتها على الأمة الإسلامية لا تقدر مخاطرها على الأجيال التي تلتها في الماضي و الحاضر و المستقبل ما لم يتدارك الأمر . فلو علم هذا أن مهمة هذه الإصلاحات التربوية ترسيخ جذور الاستعمار الجديد و تدعيم الغزو الفكري الذي اجتاحت البلاد، لعلم أنها كانت أخطر وسيلة للقضاء على الإصلاح الذي نادى به علماء المسلمين في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية، لقد جاء في مقدمة شاتليه عن ارساليات التبشير البروتستانتية ما يلي : ((قلنا في سنة 1910... في موضوع السياسة الإسلامية :)) (ينبغي لفرنسا أن يكون عملها مبنيا على قواعد التربية العقلية ... و أنا أرجو أن يخرج هذا التعليم الى حيز الفعل ليبث في دين الاسلام، التعاليم المسندة من مدرسة الجامعة الفرنسية... (2) .

ان هذه التصريحات الخطيرة لزعماء الكنيسة تكشف النقاب على أسرار الخطط الإصلاحية التي جاء بها دعاة الحداثة و كأنها من ابتكارهم و من ابداع عقريتهم و هم في الواقع ليسوا الا واجهة و مجرد أداة جامدة لا تعي شيئا مما يفعل بها . لقد وجد دهواة الاستعمار في هؤلاء الزعماء كل استعداد لتنفيذ خططهم سواء أشعروا بذلك أم لم يشعروا و هو ما جعلهم يتلقونها كتعاليم لا مجال لمناقشتها و الشك في نفعها و احتمال ضررها فدعوا اليها بحماسة نادرة (3) و حملوا شعوبهم على العمل بها متعصبين مستبدين...

لقد كان المراد بالبديل الذي جاء به هؤلاء هو ترسيخ جذور الاستعمار الحديث

1 (علي عبد الواحد وافي، أصول التربية و نظام التعليم، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، 1955، ص 192 .

2 (ل. شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، مصر، ص 13 - 14 .

3 (أبو الحسن علي الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، دار الندوة للتوزيع، لبنان، ص 166 .

و نشر الغزو الفكري للقضاء على كل محاولة اصلاحية اسلامية جاء بها علماء الاسلام و التي كانت ترمي الى تحقيق نموذج الأمة الاسلامية كما جاء محمدا في القرآن الكريم و السنة النبوية و هم يريدون بذلك ايقاظ شعلة الايمان في صدور الخلف بما نهض به السلف و رفع راية الحرية و الحق و العدل و حمل رسالة الهدى و دين الحق التي حملها الأجداد لهدى العباد.

أما نماذج القوم فقد انحلت من الغرب و الشرق و كان القصد منها سد الطريق أمام النهضة الصحيحة التي بدأت تهدد الكيان الاستعماري في أغلب أنحاء البلاد الاسلامية (1). ففي الوقت الذي بدأت فيه الأمة تشعر بضرورة العودة الى دينها القويم و اقتفاء نهجه السليم لتعيد للعالم الاسلامي حريته و وحدته يقف أئمة الكفر و الاستعمار للحركة اصلاحية الصحيحة بالمرصاد و يلبسون سياسة التغريب ثوب الحداثة و يقنعون الغزو الحضاري بخمار التمدين، و يسخرون التربية لتكوين أجيال لاحظ لها في حضارتها الا التنكر لها لجهلهم بها، و لاحظ أيضا في الحضارة الغازية التي أنتحلوها غير الشكلية و التقليد، و الانتكالية و الاستهلاك التقني، هم في الحاليتين عالة، و من الحضارتين فسي بطالة، ثقافتهم سطحية، و خبرتهم استهلاكية، و مواقفهم ارتجالية... و الوقت وقت العلم و التخطيط، و التقنية و التنظيم، تسابقت الأمم على غزو الفضاء، و تقننت في العلوم و المتاعن و تطورت صناعاتها الحربية (2)... لكن ماذا يفيد العلم عندما تموت الضمائر و تعمى القلوب و البصائر و تطفئ الأهواء و تسود الغرائز و تغيب من ساحة الحياة الثقافية و الاجتماعية الشيم، فصارت حضارة الشرق و الغرب متداعية كشجرة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، و صارت مصائر منتحلو قشورها مصائر غريق استمسك بغريق (3).

أما قولهم لولا الاصلاحات التربوية الحديثة للبتت تربيتنا تربية أصحاب العمائم فهو دليل قاطع شهد به شاهد من أهلها، و اعتراف بأن نجاح هذه الاصلاحات يعني القضاء على المؤسسات التربوية العتيقة ذات السمعة الاجتماعية، و القيمة التاريخية العالية كجامع الأزهر و الزيتونة و أمثالها في مختلف الأقطار الاسلامية، و نسي هؤلاء أن هذه المؤسسات على قدمها كانت تخرج كل عام علماء في مختلف العلوم الشرعية، و فنون اللغة العربية، و كانت تربيتها علمية لا علمانية، تعمل دووبة على نبوغ الناشئين في كل جيل يقول أحد المصلحين في المغرب العربي و هو ابن باديس... ((ان تربيتنا العلمية الدراسية المبنية على بيان الحقيقة و اجلائها على ما هي عليه حيرتنا لا تستطيع شيئا من المواربة)) (4). ففي الوقت الذي كانت التربية في المؤسسات الاسلامية تعمل على تكوين

1 (السيد أبو الحسن علي الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بأخط المسلمين، دار الكتاب ط 7، 1387 هـ - 1967 م.

2 (Roger Gageudy, Appel aux vivants, France loisirs, Paris, 1979, P.10 -

3 (يقول سلامة موسى، في كتابه مشاعل الطريق للشباب، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1962، ص 80: ((يجب أن ننظم الاصلاحات في الصحة و التعليم و نظام العائلة

و السياسة الخارجية و الأمن الداخلي في فلسفة موحدة كالديمقراطية و الاشتراكية...)).

4 (عمار طالبي، ابن باديس حياته و آثاره، دار اليقظة العربية، ط 1، 1388 هـ 1968 م ج 3، ص 383.

أجيال متشبعين بروح الاسلام عقيدة و تصورا و قيما و شريعة و أخلاقا... كانت المؤسسات القائمة على الأساس العلماني والعقلاني تعمل جادة في اعداد الانسان اللامنتمي المعتكر لدينه وقومه. ولوطنه ان استطاعت. ولئن استطاعت هذه التربية أن تحدث التباسا عند بعض الرجال الذين لا يشك في اخلاصهم و وطنيتهم و ذكائهم و منهم من وصل الى درجة القيادة السياسية فكيف لا تستطيع هذه التربية أن تكون في متوسطي الذكاء و الثقافة اللامنتمين. فلمثل هؤلاء وجه عبدالحميد بن باديس كلمة مرة جاء فيها: ((نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون - وربما عن غير سوء قصد - تاريخنا ومقوماتنا ويودوا لو خلعنا ذلك كله و أندمجنا في غيرنا)) (1). ان هذه المأساة تشخص لنا حقيقة التعليم المنتحل ومخاطره. اذ ما كان للاستعمار أن يحقق حلم تشكيك المسلمين في ضرورة الاستمسك بدينهم و العمل الجاد به الا بالتعليم الذي لغم حقوله بما هو أفنك بالضائر و العقول، فمما جاء في تقرير الارشادات التبشيرية التي كانت في طليعة الصراع الفكري الحاد. ((ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل و التثبت من فائدته... ذلك بالنسبة الى الغرض العام الذي نحن نتوخاه، و هو غرض لا يمكن الوصول اليه الا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسية، نظرا لما أختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية)) (2) ان هذا التقرير ليبين عمق فكرة التخريب الحضاري التي كان يحلم بها قادة الاستعمار و في مقدمتهم الارشادات التبشيرية التي كانت تنصدر أحداث الغزو الفكري للعالم الاسلامي و هذا ما يؤكد أحد علماء الاسلام المعاصرين في قوله ((و قد تجلى هذا الصراع و عنف و استفحل في جميع الأقطار الاسلامية، التي أخذت العلوم الغربية برمتها، و الكتب المقررة في البلاد الأجنبية أو الكتب الخالية من روح الدين على علتها و طبقت نظام أوروبا أو بلاد أخرى في التعليم في بلادها... و قد دفعت لهذا التعليم و ما جنت منه من فوائد مادية قيمة خالية جدا من الاخلاق و الروح والعقيدة و قد اتفقت كلمة العقلاء من أهل التجربة على أن خسارة الأمة و البلاد في هذا النظام التعليمي، و في هذه المعاهد و دور التعليم الحديث، كانت أكبر من ربحها)) (3) وفعلا ان ما حققه هذا التعليم للاستعمار من مطامع خيالية لم يكن ليحققه بغيره من وسائل التخريب الحضاري و الغزو الفكري. و الدليل على ذلك أنه من كان يتصور أن التربية التي أنجبت مالك بن انس و أبي حنيفة و الشافعي و أحمد بن حنبل (4) و البخاري و مسلم و أبا حامد الغزالي و ابن رشد و ابن سينا و الرازي و ابن تيمية و ابن القيم الجوزية و ابن خلدون و ابن عربي و الشاطبي و غيرهم تربية كهذه يستهان بها و تستبدل بتربية أبعد ما تكون عن حقيقة هذه الأمة و عن شخصيتها و ثقافتها و حضارتها ؟ من كان يصدق أن هذه الأمة يأتي عليها زمان و تصبح اذا احتاجت الى عالم في الدين أو علوم القرآن أو السنة أو اللغة العربية لابد لها من توجيه النبهاء من أبنائها الى الخارج

(1) عمار طالبي، ابن باديس حياته و آثاره، دار اليقظة العربية، ط 1، 1388هـ 1968م ج 3، ص 383.

(2) ل. شاتليه، الغارة على العالم الاسلامي، المصدر السابق، ص 13 - 14.

(3) السيد أبو الحسن علي الحسن الندوي، نحو التربية الاسلامية الحرة، المصدر السابق، ص 8.

(4) أحمد شلبي، تاريخ التربية الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية، 1966، ص 44، 2.

جامعة السربون في باريس ومعهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن وأخن، وحتى الأزهر الذي كان آخر ما تبقى من المؤسسات الإسلامية التي تمد العالم الإسلامي بالدعاة والمدرسين، صار رئيس شيوخه من خريجي الجامعات الغربية.

وهو ما كانت ترمي من ورائه الخطة الإصلاحية التربوية العاكرة التي تعرضت لها الأمة الإسلامية وعلى ضوئها تمت الإصلاحات التربوية الحديثة، لقد كان أعداء الإسلام - أمثال زويمر يدركون جيدا خطر الأزهر والزيوتونة والقراوين والجامع الأموي ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره وكانوا أيضا يدركون أهمية القضاء على هذه المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي (1) وما يحققه من بلبلة فكرية وشك وارتباب في الدين وانهلال في الأخلاق وضعف في الشخصية فبذون هذا النموذج لا يستطيع العالم الإسلامي النهوض برسالته والقيام بنهضة تبني الحضارة وتعيد له قوته وعزته ومناعته...

على أننا لا ننكر ما كانت تحتاج إليه هذه المؤسسات التربوية الإسلامية من إصلاح وما كانت تشكو من جمود وتجرر وشكلية... وخير دليل على ذلك روح الإصلاح التي أنتعشت في العالم الإسلامي وحركة الإصلاح وهذا ما أعترف به رئيس مؤتمر لكتوفي في خطبة الافتتاح بقوله: ((أن الإسلام قد بدأ ينتبه لحقيقة موقفه ويشعر بحاجته إلى تلافى الخطر وهو يتمخض الآن بثلاث نهضات إصلاحية: الأولى إصلاح الطرق الصوفية الثانية تقريب الأفكار من الجامعة الإسلامية، والثالثة إفراغ العقائد والتقاليد في قالب معقول (2).)) وكأنه في هذه النقاط الثلاث أراد أن يحصر النهضة الإصلاحية في إصلاح العقيدة ومنهجية سياسة وحدة العالم الإسلامي والإصلاح الاجتماعي ولئن كان صادقا في ذلك فإنه قد عمد إلى الأسلوب الغامض عند الإشارة إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية قصد اسدال الستار على أهم نقطة في الإصلاح بصفة عامة والإصلاح الاجتماعي بصفة خاصة ألا وهي مسألة إصلاح التعليم. إن المناهج الإصلاحية كانت في جلها قائمة على اعتبار إصلاح التعليم هو أساس كل إصلاح، يقول العالم المصلح الإمام عبد الحميد بن باديس ((إصلاح التعليم أساس كل إصلاح)) هذا ولقد انتبه هؤلاء المصلحون إلى ما كانت تعاني منه المنظومات التربوية من العجز والقصور في مختلف القضايا التربوية الغير السوية وهو ما يدل على مدى الوعي التربوي الذي كان هؤلاء يتمتعون به فيقول في هذا الصدد ابن باديس: ((لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم، فانما العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلىح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به وإنما يصلح اليهم هذا على يد علمائهم فإذا كان علماءهم أهل الجمود في العلم وابتداع في العمل كذلك المسلمون يكونون (3))) ويذهب ابن باديس إلى أن إصلاح العلماء مرتبط بالضرورة بإصلاح التعليم ويعتبر التعليم أهم عامل يكون على منواله الشيء فهو الوسيلة التي بها نحقق أهدافنا التي ترمي إلى ظهور علماء مسلمين قادرين على تحمل أعباء الدعوة وقيادة الأمة وتخليصها مما هي فيه من الضعف والاستعمار والتخلف... فيقول: ((ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم،

(1) عن فرحات عباس، في كتابه ليل الاستعمار، قول المؤرخ لوتي، غاية الاستعمار الفرنسي قوله: ((حاولنا في الجزائر أن نجعل من أرض شرقية أرضا غربية))، ص 24.

(2) أ.ل شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص 154 و 155.

(3) عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، المصدر السابق، ج 3، ص 217.

فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته و ما يستقبل من عمله لنفسه و غيره، فاذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم (1)، بيد أن ابن باديس شأنه شأن المصلحين الاسلاميين لا يعني بالتعليم الا التعليم الاسلامي بل يذهب الى أبعد من ذلك و يعتقد أن النموذج الذي يتوخاه للإصلاح التربوي و يختاره لهو نموذج التعليم النبوي و الدليل على ذلك قوله . ((و نعي بالتعليم، التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الاسلام يأخذ عنه الناس دينهم و يقتدون به)) . و قوله : ((ولن يصلح هذا التعليم الا اذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله و مضمونه في مادته و صورته)) (2) . و الحقيقة أن جميع علماء الاسلام يعتقدون في الرسول صلى الله عليه و سلم . أرقى نموذج للمعلم و دليلهم على ذلك قوله صلى الله عليه و سلم في حديث رواه مسلم ((انما بعثت معلما)) .

و الجدير بالذكر أن علماء الإصلاح كانوا على بصيرة مما تعانيه المنظومات التربوية من قصور و كانوا يعتقدون أن أي تفریط في اصلاح التعليم ينجم عنه فساد في المجتمع و تقهقر و تخلف للحضارة . و الحقيقة أن المنظومة التربوية هي خبرة الأجيال قاطبة على أن الخبرة وليدة زمانها و مكانها و ظروفها التاريخية المعقدة فكلما مر عليها زمان و تغيرت أمامها الظروف دعت الضرورة الى اعادة النظر في تلك الخبرة و العمل على تهذيبها و تطويرها و انماؤها و اثرائها بمجهودات الأجيال المتعاقبة كل ذلك في حدود الأصالة، أو بمعنى آخر أن يكون التغير في نطاق حضارتها و ثقافتها . كجزء أصيل من كيانها التاريخي المستمر عبر العصور و الأجيال اما اذا فقدت الخبرة و القدرة على التغير في نطاق الأصالة، فيتعذر استمرارها و تفقد بذلك مبرر وجودها بالضرورة لأنها فقدت عنصرها الحضاري و تلك هي سنة الله في خلقه : ((فلن تجد لسنة الله تبديلا و لن تجد لسنة الله تحويلا)) (3) .

و لعله ليس من العيب أن تظهر تناقضات في الأمة انما العيب كل العيب في عدم العمل على التخلص من تلك التناقضات بل يمكن أن نذهب الى أبعد من ذلك و نعتبر أنه من دلائل عظمة الأمة قدرتها على تجاوز تناقضاتها لتكمل نقصها و تتخلص مما فسد من أوضاعها و تثبت أمام الأزمات و النوائب كما تبرز عظمتها في الجهود الجبارة التي شيدت حضارتها و أثرت ثقافتها . ان القدرة على اعادة صياغة معطيات التاريخ في شكلها الأفضل في المستقبل لمن أهم شروط النهضة ليصبح الرقي عملية مستمرة لتهديب الخبرة و جودتها .

و مما نأخذه على المتطفلين للإصلاح من دعاة الحداثة أنهم نادوا بالتغير للتغير و ان كان على حساب التاريخ و الأصالة، و التغير على حساب الأصالة يعني الرفض كلياً أو جزئياً للمعطيات الثقافية للأمة و حضارتها من حيث هو رفض لخبراتها عبر الأجيال و جهود الأمة المتواصلة عبر القرون و رفض ثقافة الأمة و حضارتها، خسارة لا تقدر بثمن

1 (عمار طالبي، ابن باديس، حياته و آثاره، المصدر السابق، ص 217 .

2 (المصدر السابق، ص 217 .

لأن هذا الرافض للخبرة مفاده أن كل جيل من الأمة يبدأ من الصفر و إذا كانت بداية كل جيل من الصفر تصبح نهاية كل جيل مهما كانت جهوده صفرا من حيث هي بداية أخرى من الصفر كأجيال الحيوانات، فمتى إذن تخرج الأمة من حلقتها المفرغة، فرفض ثقافة الأمّة و حضارتها و تاريخها هو رفض للاستمرار الانتقائي الذكي. و السبب في ذلك أن للاستمرار شروطا ثلاثة هي :

أولا : عوامل الثبات التي تبقى شاهدة على البداية التي تتعاقب عليها كل أجيال الأمة في طريق الغاية .

ثانيا : عوامل التغيير التي تضي على الركن الثابت ألوان العصور المتعاقبة و ميزات كل جيل من الأجيال المتلاحقة .

ثالثا : القدرة على الانتقاء و الاصطفاء للخبرة التاريخية . و لكي لا يطغى الثابت على المتغير و يصبح الاستمرار روتينيا وهو ما يؤدي الى الركود الحضاري و الثقافي ثم يحدث الانحطاط، لابد من الجهود العبقريّة التي تعي مواطن القصور في الخبرة و تدرك حاجاتها الى الإصلاح سواء أكانت هذه الخبرة تربوية أم سياسية أم عسكرية... كما يجب ألا يتغلب المتغير على الثابت فتضيع شخصية الأمة و تذهب أصالتها، لذلك فإن الجهد الانتقائي للخبرة يعد من أهم عوامل الازدهار و الرقي في حياة الأمم . و من ثمة فإننا إذ نعترف بضرورة اصلاح المنظومة التربوية باستمرار، فإننا أيضا نعد عدم الشعور بالحاجة اليه في حقبة ما من أخطر عوامل الغفوة . و الغفلة التربوية اذا طالت يترتب عليها انحطاط ثقافي و حضاري بالضرورة ، و السبب في ذلك أن الشعور بالحاجة الى الإصلاح الذي اجتاحت شعوب العالم الاسلامي في القرن الرابع عشر الهجري ناتج عن صدمة التحدي التي أنتبه عليها المسلمون مباشرة في الغزو الاستعماري. فهو بمثابة رد فعل ايجابي لم يكن دهاء الاستعمار يتوقعونه، لكن هؤلاء حاولوا من جهة أخرى اخفاء هذه الحقيقة بتفسير مآكر لظاهرة الصحو مدعين أن ما ظهر من شعور بالحاجة الى الإصلاح التربوي في البلاد الاسلامية مرده الى الأفكار الغربية التي أنعشت الحياة الثقافية الراكدة ان ذاك فيقول القسيس زويمر : ((و مصدر هذا الشعور بالحاجة الى الإصلاح واحد و هو التغيير الذي حدث في الاسلام عندما أكتسحت أهله الأفكار العصرية و الحضارة الافرنجية (1) و الظاهر من هذا التفسير المتشعب بالأغراض الاستعمارية المآكرة و الحق على الاسلام و المسلمين هو اعتبار النهضة مجرد اقبال على ما أتى به الغرب من أفكار، في حين أن العكس هو الصحيح، إذ النهضة الأصلية تجلت في الاتجاه الذي رفض البدائل الغربية و الشرقية و في موقف الرافض الذي كان من طرف الشعوب الاسلامية قاطبة .

و من آبعاد هذا التفسير المآكر جعله النهضة مجرد الشعور بالحاجة الى تقليد الغالب و الاقبال على ما أستورده للعالم الاسلامي من أفكار لتكون عقدة التقليد الأعشى و التبعية التامة و الانصهار في الغرب انصهارا كليا في حين أن علماء الإصلاح كانوا يحاولون اعطاء النهضة صبغة العبقريّة الفذة الناقدة و المبدعة اليقظة في انتقاء

1 (1) أ.ل شاتليه، الغارة على العالم الاسلامي، المصدر السابق، ص 155.

الخبرات حتى تكون الأمة في صيرورة تاريخية انتقائية على الدوام و من ثمة فان عامل القيم يعتبر من أهم العوامل التي تتميز بها الصحوة كي تعي الأمة ذاتها و تهتدي الى الأفضل الذي يحقق أكمل صورة عن نفسها كما يجب أن تكون عليه من حيث هي أمة اسلامية حاملة رسالة الهدى و دين الحق.

و حتى لا نقع في الغموض و متاهة النسبية فان للقيم أصولا و فروعا. و اذا كان من أهم خصائص الأصول الثبات فان التغير هو الآخر من أهم مميزات الفروع، فالدين الاسلامي مثلا لا يمكن بحال الا أن يكون دائما هو الدين الحق الذي جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام كما هو مبين في القرآن الكريم و السنة. و من ثمة فان عقيدته تبقى هي نفسها و كذلك الشريعة و الأخلاق و مختلف المفاهيم و القيم فهذه تعد من أهم مقومات الأمة الاسلامية اذ بدونها لا يمكن أن تكون، فوجودها و استمرارها مرتبط ارتباطا كليا بها و هذه من سنة الله في خلقه لا يدعى عكسها الا مراوغ. و أما الفروع و التقنيات و الحاجيات و التحسينيات و الكماليات من أمور المعاش المختلفة فهي الأمور المتغيرة و هي التي عن طريقها ندرك ما يجب أن يبقى من صالح و ما يجب أن يزال مما طرأ عليه من فساد.

فمن عوامل الفجوة بين ما كانت عليه الأمة في ظروف ما و زمن ما و بين ما يجب أن تكون عليه في المستقبل تتجلى رسالة الجيل الجديد لأن الظروف لا تسمح دائما بتحقيق كل ما يطمح اليه الجيل من الآمال الا نادرا، فالتفاوت الذي تدركه الأجيال بين الحاضر كما هو ايجابية و سلبية و بين ما يجب أن تكون عليه الأمة هو مجال الجهود و الاجتهاد اللذين تتبلور فيهما عبقرية الجيل الجديد و هو ما يطبع عصره بطابع جهده و اجتهاده. و هذا ما يجعل الأجيال في مستوى الاحتفاظ بالتالد و التميز بالطراف كجيل من بنى الحضارة. حيث ترتبط الفروع بالأصول و يكون التنوع في الوحدة و الكثرة في الانسجام و الاتساق و هو ما يحقق النوعية و يضمن عدم طغيان الكمية على الكيفية في التكامل و التجاوب و التجانس و التفاعل... و اذا حدث أن فقد هذا الوعي و رضى الجيل بما أنتهى اليه سلفه أو تنكر له تقاسم هذا الأخير، و فقد الحافز الى الجهد الضروري الذي يكون في مستوى متطلبات الحضارة كي تزدهر. ساعتئذ يصير هذا الجيل الخامل الفاقد للعزيمة اتكاليا عاجزا عن الإبداع و الانتاج الحضاري الراقي فينزع بحكم هذا الوضع النفسي المتدهور الى التقليد فتتدهور الأوضاع الثقافية و الاجتماعية و الاقتصادية السياسية... ثم يبدأ ظل الحضارة في تقلص مستمر، و اذا طال هذا الوضع النفسي بأجيال الأمة تسقط حضارتها، و تصير خيرا بعد حين. و هذا ما يفسر ظاهرة الوعي الذي دب في أعماق الأمة الاسلامية فحرك ارادتها و قوى عزيمتها للعمل على التخلص من المأساة و اعطائها المبررات السليمة التي تعبر عن روح الأمة و ذاتيتها الغدرة و التي ما فتئت مشاعر الخير تتأجج في أعماقها و تدفعها من الداخل الى العمل الجاد من أجل القيام برسالتها من حيث هي أمة اسلامية ذات رسالة و صاحبة حضارة منها تستمد مبررات وجودها. و لذا نلاحظ أن هذا الوعي لم يكتف بطرح مسألة الإصلاح بل تجاوزه الى الاقتناع بالحل الاسلامي و رفض الحلول المستوردة التي تحمس لها بعض المعجبين بالغرب، و دعا اليها قصيرو النظر في الأمور. و الحقيقة أن موقف الرفض للبدائل المستوردة من طرف الأمة الاسلامية ليس بدعة، لكن دعاء الاستعمار اعتبروا هذا الرفض لبدائلهم من طرف الأمة الاسلامية رفضا للحضارة، فوصفوا الأمة بالهمجية و الوحشية... و أضفوا على غزوه

الحضاري طابع التمدين و الشرعية في حين أنهم لم يعيبوا على شعوبهم رفض البدائل المستوردة .

و لقد كان من العسير جدا على أمم الغرب و الشرق و هم يقدمون على اصلاح نظمهم التربوية أن يوفقوا بين استعارة الخبرات الأجنبية و بين المحافظة على أصالتهم و شخصيتهم و طابعها الثقافي القومي . ان ولوع فرنسا و بريطانيا بالنظام البروسي التربوي و رغبتها في اصلاح نظاميهما في ضوء التجربة البروسية لم يزهده المربين الفرنسيين و الأنجليز في أسالة نظامهم التربوي بل زادهم خوفا على شخصيتهم من التشويه و التناقض و افشاء نزعة التقليد للأجنبي و ان كان أوروبا . لأنهم كانوا يعتبرون المنظومة التربوية ما هي الا نتيجة لجهاد أجيال الأمة عبر العصور . لذلك لم يسمحوا لأنفسهم بالارتجال و المجازفة في عملية الاصلاح . فالنقاش الشيق الذي أثارته قضية استعارة الخبرة الأجنبية كان على أشده منذ نهاية القرن التاسع عشر الى اليوم . و على الرغم من حدته أحيانا فقد كان مفيدا الى حد كبير من الناحية النظرية و العملية على حد سواء فمن الناحية النظرية أثمر النقاش الذي كان بين المربين و المفكرين فكرا تربويا عمق النظرة في المسائل التعليمية و غيرها مما له علاقة بالتربية و توسيع مجالات التربية النفسية و الاجتماعية و غيرها و طور المناهج و طرق التدريس و الوسائل التكنولوجية الى جانب مساعدته على ظهور و نضوج علم من أهم علوم التربية (1) و مما أحوج المتحمسين للبدائل الحديثة الى معرفة هذه الحقائق كي يعرفوا مدى جنايتهم على الأمة الاسلامية و تجنبهم على الحق و الحقيقة .

و هكذا يتبين لنا أن رفض الأمة الاسلامية لبدائل الحداثة المستعارة من الغرب أو الشرق هو رفض طبيعي ، كما يدل هذا الرفض على مدى وعي الأمة الاسلامية . حيث أدركت أن خطر الغزو الحضاري أخطر و أكثر عمقا و دهاء من الغزو العسكري ، و انها اذا استسلمت للغزو الفكري فلماذا تحارب الغزو العسكري و هو أهون ؟ ان ما ظهر من الأمة الاسلامية من عدم الاستعداد للتجاوب مع بدائل الاستعمار و ان كان في شكل رفض نفسي فذلك أن الأمة كالأفراد لا تطمئن لما لا يتقبله ضميرها الأخلاقي و حسها الحضاري و مجدها التاريخي فترفض رفضا باتا كل البدائل التي لا تتفق مع قيمها و يهدد كيانها و يكون خطرا على مستقبل أجيالها . و من ثمة فان الرفض الأخلاقي لابد أن يكون متبوعا بالرفض النفسي فتصبح القضية قضية أعماق و أغوار سرعان ما تتحول الى دوافع و مبررات تشكل العوامل الأولية للفعالية العامة للأمة ، و تنعكس في سلوك جماعي ل نهضة حضارية و ثورة فكرية تتحدى كل غزو ، فتفتتق القرائح ، و تنبه المواهب و مختلف القدرات لفعالية الأمة الواعية ... و مما يؤكد ارتباط الفعالية بضمير الأمة و ذاتيتها أن الدوافع المحفزة لبذل الجهد الابداعي و الحضاري تقوى بقوة مبرراتها العقائدية و الأخلاقية و النفسية و تضعف بضعفها أو تخمل بعمولها . ان استقراؤنا لتاريخ الحضارات في نشوئها و تطورها و ازدهارها و جمودها و انحطاطها و دراسة الظواهر الثقافية و الاجتماعية في مختلف أطوار الحضارة يؤكد ارتباط فعالية الأمم بمدى وعيها لذاتها و قناعتها بعقيدها و فكرتها المثلى عن

(1 - Brian Holmes, Problems in Education, Routledge et Kegan Paul, London, 1965, P. 5.

نفسها و هو ما يذكي حسها بالحاجة الى الحرية و الارادة و الفعالية... و هذه أمور اعتبرها فلاسفة الحضارة من أهم المبررات لنشوء و ارتقاء الحضارة وهو ما يجعل التفسير النفسي (1) لصحوة الأمة الاسلامية و موقف الأمة من البدائل المستوردة يعتبر حتى الآن أقرب محاولات التفسير الى الصواب و أن المنهج المتبع لدراسة هذه الظاهرة لهو أقرب المناهج الى الحقيقة .

و لعل هذا ما يحملنا الى القول بأن دراسة مالك بن نبي (2) لواقع العالم الاسلامي و دراسة آرنولد تونبي و شينكلر للحضارة الغربية من أهم الدراسات و أعمقها حتى الآن. أما الدراسات التي أهملت العوامل النفسية في الحياة الثقافية و الاقتصادية و السياسية فهي من أففل الدراسات و أكثرها سطحية من ذلك نذكر الدراسات القائمة على أساس المادية التاريخية لكارل ماركس. على أن دعاة الاصلاحات التربوية و غيرها التي نادى بها أصحاب الحداثة اذ حاولوا اغفال الفروق الموجودة بين الأمة الاسلامية و أمم الشرق و الغرب، تجاهلوا موقف الرفض للأمة الاسلامية و بالغوا في احتقارهم له ظنا منهم أن فرضها بواسطة السلطة السياسية قد يكفي في اجبار الناس على العمل بها طوعا أو كرها .

فكان من عواقب ذلك أن وجدت هوة سحيقة بين النظم التي تبنت هذه البدائل و بين الشعوب، بالإضافة الى ذلك ما أحدثته هذه التربية من بلبلة للأفكار (3) و زعزعة للعقائد و اضطراب للقيم، فعلية زرع الخبرة الأجنبية في المنظومة التربوية لاهد من أن تكون مصحوبة بردود فعل تنعكس في شكل صراع بين قيم المنظومة الأصلية و قيم الخبرة الأجنبية تظهر من خلالها قضايا جديدة على المجتمع من ذلك مثلا مشكلة الاختلاط بين الجنسيات و مسألة العلمانية أو اللاتينية و قضية التوجيه التربوي فالتخطيط و مشكلة المرأة... الى غير ذلك من القضايا المستحدثة و التي في الواقع لا مبرر لها غير الحمى الاجتماعية التي أنتابت الأمة عندما غزتها جرثومة الثقافة الأجنبية بواسطة الخبرة المستوردة . و هو ما يؤدي حتما الى نشوء تناقضات على مستوى الحياة الثقافية الاجتماعية حيث يفتقد المجتمع حتما انسجامه و تماسكه و تناسقه . و لا تقف حمى التناقضات الا بأحد الأمرين : فاما الانحلال و اما التمزق من الداخل نتيجة التفكك و التنازع و التعارض و التضارب و هو ما حدث في المشرق و صار يهدد شعوب المغرب .

و هذه النتيجة هي التي كان دعاة الاستعمار يعملون بكل مكر و دهاء للوصول اليها بدءا بالقضاء على الخلافة و جعل وحدة العالم الاسلامي أمرا مستحيلا . و الدليل ما قاله القسيس نلسن : ((فانه يستحيل أن يكون من المسلمين عنصر حي حقيقي في استطاعته جمع السنيين و الشيعة معا، و يضم الأتراك و الفرس و الهنود الى العرب، ليكافحوا و يدافعوا

(1) آرنولد تونبي، مختصر دراسات التاريخ، ترجمة : محمد فؤاد شبلي، جامعة السودان العربية، 1961.

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، عمر كامل مسقاوي، دار الفكر.

(3) السيد أبو الحسن علي الحسن الندوي، نحو التربية الاسلامية الحرة، المصدر السابق،

يدا واحدة على اتفاق وثقة متبادلة ((1). هذه هي نتيجة الإصلاحات القائمة على أساس النظم التربوية والسياسية والاجتماعية الغربية والشرقية التي تحمس لها دعاة الحداثة والتي بثت في العالم الاسلامي لتمزيقه من الداخل ومواجهة حركة الجامعة (2) الاسلامية التي كانت تعمل على توحيد العالم الاسلامي وكان يدعو لها قطاطلة علماء البلاد الاسلامية جمال الدين الأفغاني (3) ومحمد عبده وحسن البنا وعبد الحميد ابن باديس والمودودي... وكانوا لتحقيق ذلك الغرض قد تبنا المنهج الاصلاحى السلفى الذى يقوم على اعتبار النموذج الأليق بنهوض الأمة الاسلامية هو النموذج النبوي كما هو في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والأثر الذى جائت به قرائن الصحابة والتابعين وعلماء الاسلام النابهين، واتخذوا التربية أساسا للاصلاح الاجتماعى.

اذن هذه هي حقيقة المحاولات الاصلاحية التى قام بها دعاة الحداثة وما نجم عنها من عواقب وخيمة كان من نتائجها تمزيق شمل المسلمين والبلبله الفكرية الفكرية والعقائدية والانحلال الأخلاقي وتعميق هوة التبعية للشرق والغرب للوصول في النهاية الى جعل عودة المسلمين الى دينهم الصحيح الذى يجتمع عليه شملهم أمرا مستحيلا كما قال القسيس نلسن في مؤتمر الارساليات التبشيرية في العالم الاسلامي ، وهو ما جعل أيضا علماء الاسلام يشعرون أكثر فأكثر بضرورة القيام بالحركة الاصلاحية والعمل على تخلص الأمة الاسلامية من براشين الغزو والفكري وذلك بالعودة الى الأصل والعمل على اصلاح المجتمع الاسلامي عن طريق التربية الاسلامية (4) التى حددوا معالمها ومبادئها وجميع خصائصها.

يتبين مما تقدم أن البلاد الاسلامية وهي تستعد للوشة الحاسمة في حياتها لتتخلص مما هي فيه من ضعف وتخلف وقصور وتقصير في أمور دينها ودنياها نتيجة لعدة أسباب أهمها الغزو الفكري والاستعمار بشكلييه التقليدي القديم وشبه البراق الحديث عانت من محاولات اصلاحية زائفة، وهو ما عرقل المحاولات الاصلاحية الاجتماعية الاسلامية بمعناها الواسع والتي نادى بها علماء الاصلاح الاسلاميون. واذا تصدى هؤلاء العلماء الى مهمة اصلاح الأمة. اتخذوا الاصلاح التربوي أهم وسيلة لتحقيق مرامهم والوصول الى أبعد غاياتهم وأهدافهم ومن ثمة ظهرت الحاجة الى الاصلاح التربوي حيث هي أساس كل اصلاح كما جاء ذلك في خطاب ابن باديس.

1 (أ.ل شاتليه، الغارة على العالم الاسلامي، المصدر السابق، ص 164.

2 (وما قاله القسيس نلسن في هذا الصدد : ((اسمحولي أن أقول لكم أنه يظهر أن اجتماع المسلمين بجامعة اسلامية بكل المعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ هو أمر و هي لا ثمرة له غير توليد أحلام تقلق رجال السياسة))، ص 164.

3 (علي عبد الواحد وافي، أصول التربية ونظام التعليم، ص 181 - 192.

4 (عما طالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، المصدر السابق، ج 3، ص 217.